الباب الأول

حالة المرأة فى عهود ما قبل الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

حالة المرأة فى البلاد ذات الحضارات القديمة

تمهيد :

قبل أن نعرض للوسائل العديدة لتكريم الإسلام للمرأة ومنحها حقوقها الكاملة فى كافة مجالات الحياة ، فإنه من الأمانة أن نعرض بعض الحقائق الهامة التى يجب على المرأة المسلمة أن تقف عليها حتى تعرف كيف كرمها الإسلام ، وأعلى شأنها ، وأعاد إليها كرامتها وسيادتها ، بعد أن كانت على مر العصور ـ قبل الإسلام ـ مهينة ذليلة ، لا وجود لها ولا كيان .

أولاً : حالة المرأة عند اليونان (بلاد الإغريق القديمة) :

أرقى الأمم القديمة حضارة ، وأزهرها تمدناً فى التاريخ هم أهل اليونان ، وكان من فلاسفتهم أرسطو ، وأفلاطون ، وديموستين ، ومع ذلك كانت نظرتهم للمرأة سيئة للغاية ، فكانت المرأة تُعَد من المخلوقات المنحطة التى لا تنفع إلا لدوام النسل ، وتدبير المنزل ، فإذا وضعت المرأة ولدًا دمياً قضوا عليها .

وكانت تؤخذ المرأة الولود من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر.

ولم ينل ـ فى خلال ازدهار الحضارة اليونانية ـ الحظوة من نساء الإغريق سوى بنات الحب والهوى .

نظرة فلاسفة اليونان إلى المرأة :

أرسطو:

كانت نظرة أرسطو إلى المرأة لا تعدو نظرته إلى العبيد ، فالمرأة فى اعتقاده كائن

وهكذا فلم تكن للمرأة فى المجتمع اليونانى أية منزلة أو مقام كريم .

وكانت الأساطير اليونانية قد اتخذت امرأة خيالية تسمى «باندورا» ينبوعاً لجميع آلام الإنسان ومصائبه .

وتغلبت الشهوات الجنسية على اليونانيين ، وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لايرون فى الزنى وارتكاب الفحشاء غضاضة يُلام عليها المرء ويُعاب .

وبلغ من الانحطاط المعنوى والخلقى لهم أن صوروا إلهاً لهم يزنى ، ويسرق ، ويشرب الخمر . واتخذوا من «أفروديت» إلهة لهم يُقدم لها جميع آداب العبودية والذل والخنوع .

إن «أفروديت» فى أساطيرهم كانت زوجة لإله ، ومع ذلك عاشرت ثلاثة آلهة آخرين ، ثم عاشرت رجلاً من عامة الشعب علاوة على تلك الآلهة ، فكان نتيجة ذلك أن ولدت من بطنها «كيوبيد» إله الحب .

وانتشرت عبادة «أفروديت» فى اليونان وأصبحت أماكن الفجور مراكز للعبادة ، وأصبحت المومسات خدماً للمعابد ، وألبسوا الزنى كساءً من العمل الدينى المبرور .

وبعد ، ذلك وضع المرأة عند الإغريق ، وما وصلت إليه من ذلة ومهانة وازدراء ، ولم تمض إلا حقبة وجيزة من الزمن حتى انهارت تلك الحضارة .

ولم يكن لليونانيين نصيب من المجد والرقى بعد ذلك مرة أخرى[1] .

ثانياً : حالة المرأة عند الرومان :

الذين تسنموا ذروة المجد والرقى فى العالم بعد اليونانيين هم الرومان (٣١ق.م) حيث اقتبس الرومان الحضارة الإغريقية ، ولم تحظ المرأة عندهم بأى شىء من التكريم ، ففى التشريع الرومانى كانت المرأة تُعَد متاعاً مملوكاً للرجل ، وسلعة من

(١) انظر : حضارة اليونان لول ديورانت ـ ترجمة د. محمد بدران .
وانظر الحجاب لأبى الأعلى المودودى .

ناقص، ضعيف الإرادة ، وليس فى وسعها الرقى إلى مراتب الاستقلال ، فالحياة المنزلية حياتها المثالية ، ومن الخطأ رفعها إلى قَدْر الرجال .

أفلاطـــون :

وقال أفلاطون فى كتابه الجمهورية :

« شجاعة الرجل فى الإمرة ، وشجاعة المرأة فى تأدية الأعمال الوضيعة صمت متواضع ، وهذا هو شرف المرأة » .

ومن أقوال أفلاطون أيضاً : « ينبغى تداول النساء كما تتداول الحاجات » ، فهو فى مدينته الفاضلة يرى شيوع المرأة بين الرجال !

سقـــراط :

أما سقراط فيذهب إلى أن للصديق الوفى أن يبر أصدقاءه فيعيرهم زوجته !

ديموستين :

أما ديموستين خطيب اليونان وفيلسوفها المشهور قديماً فيقول فى بعض حكمه : «إننا نتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ، ونتخذ العاهرات للذة » .

فكانت الزوجة تنتقل من بيت أهلها لبيت زوجها لا لتكون سيدة بيت ، بل لتؤدى فيه ـ إلى جانب الخدم ـ وظيفتها فى ولادة الأطفال وحضانتهم .

وكان الفلاسفة يتجادلون فى أمر المرأة :

ـ هل للمرأة روح أو ليس لها روح ؟

ـ و إذا كان لها روح فهل هى روح إنسانية أو حيوانية ؟

ـ وعلى فرض أنها ذات روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعى والإنسانى بالنسبة للرجل هو وضع الرقيق أو هو شىء أرفع قليلاً من الرقيق ؟

obeikandl.com

السلع الرخيصة يتصرف فيها كيف يشاء ، ويملك من أمرها ما يريد ، حتى حياتها كانت مملوكة لأبيها ، ثم لزوجها ، ثم لبنيها ، وكان ملكهم إياها تامًّا ، كملكهم للرقيق والحيوان والجماد . وكان يُنْظَرُ إلى المرأة على أنها مثار الشهوة ، وأنها شيطانة ، وأنها رجس ، وأنها لا سلطان لها على أنوثتها . وحسبنا فيما وصلت إليه المرأة الرومانية من الإهانة والازدراء ما ورد باجتماع مجمع روما للبحث فى شئون المرأة ، الذى قرر :

« أن المرأة كائن لا نفس له ، وأنها لن ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس ، ويجب ألاَّ تأكل اللحم ، وألاَّ تضحك ، وألاَّ تتكلم ، وعليها أن تمضى جميع أوقاتها فى الخدمة والخضوع » .

واعتبر القانون الرومانى «الأنوثة» سبباً من أسباب انعدام الأهلية والحَجْر ، فلقد كان للحَجْر فى القانون الرومانى ثلاثة أسباب : «الصغر ، والجنون ، والأنوثة » .

وبلغ من احتقارهم للمرأة أن منعوها من الكلام ، فكانت المرأة ـ من أدنى الأسر إلى أرقاها ـ تسير فى الطريق ، وتعمل فى بيتها ، ولا تنبس بكلمة ، وإذا تكلمت فيا ويلها ؛ لأن كلامها أداة للإغراء ، وكأن الله حرمها أن تنطق بخير أو تدل عليه .

ومن هذا القبيل أن تقدم أعضاء مجلس «التربيون» الرومانى بقانون يحرم على المرأة حق التملك لأكثر من نصف أوقية من الذهب ، وأن تلبس ثياباً مختلفة الألوان ، وأن تركب عربات إلى مدى ميل من روما إلا فى بعض الحفلات العامة .

ولما تقدم الرومان خطوات فى سبيل المدنية والحضارة خفت قسوة سلطة الرجل على المرأة ، ونظموا العلاقات الزوجية ، فأصبح غير مباح عندهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون عقد زواج ؛ ولذلك أخذت المرأة التى تكون أمًّا لأسرة تتبوأ مكانة طيبة فى المجتمع ، ومُنحت المرأة بعض حقوق الإرث والتملك .

غير أنهم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلاً جعله شيئاً عاديًّا بلا قيود ، فقد ذكر القديس جروم (٣٤٠ ـ ٤٢٠م) عن امرأة تزوجت فى المرة الأخيرة الزوج الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هى أيضاً الحادية والعشرين لبعلها . ثم بدأت بعد

ذلك تنهار عُرَا الأخلاق والآداب فى المجتمع الرومانى ، حتى وصلت إلى درجة أن كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنى شيئاً عاديًا ، واندفع تيار من الدَّعَر والفجور والفواحش ، وراجت مهنة الداعرات ، وانجذبت إليها نساء البيوتات .

وكان نتيجة لانغماسهم فى الشهوات البهيمية أن زالت دولة الرومان ، وتمزق جمعها كل ممزق ، وانتهت الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى فى حوالى سنة (٤٧٦م)[١] .

ثالثاً : حالة المرأة عند الهنود :

كانت حالة المرأة عند الهنود حالة ذليلة مهينة . فقد جاء فى شرائع «مانو» إله الهند : « أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة » .

كما جاء أيضاً فى شرائع «مانو» : «تخضع المرأة فى طفولتها لأبيها ، وفى شبابها لزوجها ، وفى تأيمها لأبنائها ، وفى ثكلها لأقرباء بعلها ، ولا يجوز ترك أمرها لها . وتعد المرأة زانية إذا خلت بالرجل مدة تكفى لإنضاج بيضة ، وتحرم من حقوق الملكية والإرث» .

كما جاء فى الشرائع نفسها : « أن الزوجة الوفية ينبغى أن تخدم زوجها كما لو كان إلهاً ، وألاَّ تأتى شيئًا من شأنه أن يؤلمه ، حتى إذا خلا من الفضائل ، وعلى المرأة أن تخاطب زوجها فى خشوع قائلة : يا إلهى ! وتمشى خلفه بمسافة ، ولا تتكلم معه ، ولا تأكل معه ، بل تأكل مما تبقى منه » .

وجاء فى أساطير «مانو» : «أن «مانو» عندما خلق النساء فرض عليهن حب الفراش ، والشهوات الدنسة ، والغضب ، والتجرد من الشرف ، وسوء السلوك ، فالنساء دنسات كالباطل نفسه ، وهذه قاعدة ثابتة » .

وكانت بعض الديانات الهندوكية ـ إلى عهد قريب ـ تحكم على المرأة بأن تحرق نفسها

---

(١) انظر : مبادئ القانون الرومانى للدكتور محمد عبد المنعم بدر ، والدكتور عبد المنعم البدراوى . .
وانظر : الحجاب ، لأبى الأعلى المودودى ، والموسوعة الثقافية للدكتور حسين سعيد .

فى النيران التى تُحرق بها جثة زوجها الميت ، فإذا رضيت المرأة أن تعيش بعد زوجها فهى قد تخففت من الموت المادى إلى نوع من أنواع الموت المعنوى ، فعليها أن تحلق رأسها ، أو تجدع أنفها ، أو تصم أذنها ، أو تشوه وجهها ، لكى تضمن ألاَّ ينظر الرجال إليها بعد زوجها . وقد منعتهم أخيراً الحكومات المسلمة من ذلك [١] .

رابعاً : حالة المرأة عند الصينيين :

كانت المرأة عند الصينيين تحتل مكانه مهينة ذليلة أيضاً . وجاء فى رسالة قديمة كتبتها إحدى سيدات الطبقة العليا بالصين تقول :

« نشغل ـ نحن النساء ـ آخر مكان فى الجنس البشرى ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال » .

ومن أغانيهم القديمة المشهورة :

« ألا ما أتعس حظ المرأة ! ليس فى العالم كله شىء أقل قيمة منها ، إن الذكور يقفون متكئين على الأبواب كأنهم آلهة سقطوا من السماء ، أما البنت فإن أحدًا لا يُسَرُّ بمولدها ، وإذا كبرت اختبأت فى حجرتها تخشى أن تنظر فى وجه إنسان ، ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها » [٢] .

والمثل الصينى يقول : « أَنْصِتْ لزوجتك ولا تصدقها » .

ومن الأمثال الشائعة فى بعض الدول الأخرى عن المرأة مثل روسى يقول : «لاتجد فى كل عشر نسوة غير روح واحدة»

ومثل إيطالى يقول :

« المهماز للفرس والجواد والفرس الجموح ، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة» .

ومثل أسبانى يقول :

« احذر المرأة الفاسدة ولا تركن إلى المرأة الفاضلة » .

---

(١) انظر : حضارة الهند ، لول ديورانت ، ترجمة د . زكى نجيب محمود . وانظر : الحجاب ، لأبى الأعلى المودودى . وحضارة العالم ، ط مؤسسة فرانكلين ، ترجمة وزارة المعارف المصرية .

(٢) انظر : حضارة الصين ، لول ديورانت ، ترجمة د . محمد بدران .